

# تقسيم على وتر الربابة

## قصة بقلم محمد خضير

مفصلاً من ذات قماش اغضية الطفلتين ، ونشد رأسها بفوطة سوداء ،  
يحشوها الضوء ثلاثين عاما .

- الثوب جديد أيضا ، والمكان دافئ . لا اصدق اني ارى هذه  
الاشياء الجميلة مع اني لم ابتعد عنها غير عشرين يوما في الاردن .  
اجلسي لاراك جيدا . كاني دخلت بيت سواي وجلست امرأة غيري .  
اجلسي هناك لاراك .

جلست خلف المدفأة ، على بساط قطني مخطط بشرائط لونية  
متوازية ، وكانت المدفأة تفصل بينهما ، وتركت فمها مفتوحا . كانت  
شفتها كفلقتي بافلاء ، مضلعتين وصافيتين تحت النور ، ممثلتتين  
بالدم كما لو خرجت للتو من حمام بخاري ساخن . والآن فقط استطاع  
ان يلمح الشفرة التي احدثت مكان السن العلوي الاوسط ، ينفذ منها  
للداخل القبار اللامرئي وموجات الحرارة والنور .

- لقد عطبت اخيرا .

فتحت فمها اكثر :

- اجل ، وانت كذلك .

- انا ؟ حقا انا معطوب ايضا . كيف عرفت ؟

- انت تجلس بصورة مائلة .

- آه . كنت في المستشفى . اصبت بساقي .

رفع بنظونه الى ما فوق الركبة ، وانحنى فتحسنت باصابعها  
الجرح الاحمر النهي وسط شعر الساق الكثيف : كانت تطول وتتمدد  
حتى لامست السقف بعد ان اكملت الفراغ بين رأسها والسقف بقوالب  
النور الراقصة المنفصلة عن حرمة ثوبها ، وكانت المرأة الصغيرة  
المدورة المعلقة في باطن احد اطواق الجدران ، تعكس الصباح المتدلي  
فوق رأسه وتربطه اليها باسلاك تفتح جروحا في عينيه بسرعة مذهلة -  
مباضع تفتح جروحا نارية مقيته ، لانفتاحها صرير مفاصل الابواب  
الثقيلة الرطبة .

- لا زلت اجلس في زجاجة خل . دعيني ارى وجهك .

- أتشعيت ؟

- لا .

- احتفظ ببقية من فطوري . انا صائمة .

لها ابتسامة صعبة ، في اثرها تنكش لثتها البيضاء فوق سننها  
المخلوعة . كانت تشني ركبتيها اسفلها . في باطن طوق الجدار امامه  
صورة دينية معلقة الى جانب المرأة فوق شقوق الجدار ، وعلى حافة  
الطوق تحتجز شاكوش بيضتين .

- ساكل بيضا .

- آه حصيلة دجاجاتي لهذا الصباح .

نفض قبلها فتناول بيضة ، وضعها مستقرة على غلاف المدفأة  
الدائري .

- افضلها مشوية . كم دجاجة لديك .

- اربع .

- كنت تملكين خمسا . أليس كذلك ؟

- بلى . انك تذكر . ماتت الخامسة . كان الامر مضحكا .

- بت في السطح ذلك المساء . كنت تقولين انها تبكي .

- كانها كانت تبكي . ومع ذلك فقد انتهت حياتها .

- عند الفجر . سمعنا اذان الفجر . كان البرد قويا فوق عند

الفجر .

- لم يمض وقت طويل . كان ذلك في يوم سفرك .

- بلى . بلى . كانت لدي ساعة فقط كي التحق .

- كانت الدنيا بردا . . . أكان القطار باردا ؟

- ليس كثيرا . ولكنه كان مزدحما . كان مزدحما في رجوعي  
بالامس ايضا . وعانيت صعوبة كبيرة كي اصل لباب العربة . وكانت  
العربة باردة جدا برغم الزحام .

- وهناك ؟

- هناك كنا مئات في المستشفى . بيننا محترقون . لست اعرف

احدا منهم . كنا نرقد في الظلام ولم تكن ننام . نسمع المدافع

باستمرار وتتناوب في التفرغ بعيدا وقريبا .

كان الباب مظلما لانه يقع في زاوية جدار . والليل النائم في  
الزقاق يقطر ماء . بعد ان هبط درجات عربة من القطار النازل شاهد  
خزان اسالة الماء خلال ظلمة المحطة كزهرة حديدية مبللة تحملها  
اغصان متشابكة سوداء ، وكانت السماء مبلطة بالسواد ، تظن رذاذا ،  
والحصى يبرق تحت اضواء الاعمدة ، والسكستان الحديديتان لامعتين ،  
كسيفين اثريين . كان الطريق موحلا ، وكذلك سوق البلدة الرئيسي ،  
والابواب مغلقة جميعها على جانبي الزقاق ، وسمع صوت حدائيه  
بوضوح تام ، كانه ادرك لاول مرة انه يمشي .

توقف امام الباب ثم تركه واتجه نحو النافذة المجاورة له ، فمد  
قبضة يده المضمومة خلال اعمدتها وطرق بمفاصل اصابعه الخشب  
الرطب طرقات خفيفة . كان النور يمتد على معطفه العسكري الثقيل  
بخطوط طويلة من الشقوق المتفرقة في النافذة . وفي ضوء خيط منها  
راى ساعته ، فعرف انه امضى ربع ساعة بين المحطة والبيت . كانت  
الساعة في زمن السادسة الا ربعا . كان يلف رأسه بكوفية بيضاء ،  
ويمسك بيده حقيبة صغيرة ، وتحت ابطه بطانية ملفوفة حول وسادة .  
وقبل ان يطرق الباب ثانية ، فتح وبرز وجه امرأة يطفو في دكنة  
الداخل : - كريمة .

دخل الجندي ، فاحاطته المرأة بذراعيها والصقت مقدمة وجهها  
في صوف معطفه ، وكانها تشم رائحة قلبه ، ومضغت الصوف :  
- هل حدث كل هذا ؟

باب نصف مفتوح يضيء الدهليز ، قبالته السلم الذي يؤدي  
للسطح ، واسفل السلم يرتكن باب ازرق واطيء يتسلقه الضوء  
المستطيل قليلا بعد ان يعبر ارض الدهليز الرطبة ، وفي الضوء  
المنسلق يلقي ابريق نحاسي مسنن الحافة ظلا خلفيا على الباب  
الازرق .

- هل سمعتاني ؟

- نائمتان .

- هل اوقفتكما طرفاتي ؟

- لا .

رد نصف الباب المفتوح ، ووضع حاجباه على الارض المبروشة .  
كان الضوء فاجرا تخلق فيه اشياء الغرفة الدافئة ، والجدران مقسمة  
الى اطواق مستطيلة عديدة مرتفعة عن ارض الغرفة ، حافاتهما المقوسة  
العليا قليلة الانحناء . وفي وسط الغرفة مدفأة سوداء امامها كرسي  
خيزران . وفي الطرف المقابل للباب يلتصق للجدار السرير الواسع  
يعكس فراشه المشبي موجات ناعمة ، وعلى حافته البعيدة تستند  
للجدار وسائد حمراء وسوداء متجاورة طرزت عليها مناظر يابانية  
رائعة . وباتجاه النافذة المظلة على الزقاق سرير صغير ذو حواجز  
عالية ، اما الاريكة فهي تحت النافذة .

- اشياء جديدة .

- الوسائد فقط . كانت لدي النقود التي تركتها لي .

- ما عدا المدفأة والمصباح ، فكان الغرفة قد غسلت بالماء .

- ذلك لان الفراش ناعم .

والقى بثقل يده على الفراش في السرير فتغور .

- فراش حقيقي . كم انا بحاجة للنوم !

وانتقل ينظر في باطن السرير الصغير . كان وجهها الطفلتين  
متقاربين وجبهاتهما ملتصقتين ، كأنهما تنظران لبعضهما في النوم .

- شيء ما ينتقل بين رأسيهما . هما تحلمان .

- أنت في اجازة ؟

جلس على الكرسي الخيزران ، وكانت المرأة ترتدي ثوبا فضفاضا

أخرجت جريدة من أسفل السرير كانت قد طويت حول ربابة .  
كانت العناوين العليا عن الحرب ، وانتشرت صور عديدة في أجزاء  
الصفحة السوداء .

– ولكني لم أسمع الراديو عند مجيبي .

– أخذت أسامه .

– وأغاني الربابة ؟ سأجرب قليلا .

أسند طرف الربابة لفخذه الممدودة ، وضبط بأصابعه وتر  
صندوقها ومرر باليد الأخرى وتر الربابة المشدود في طرفي القوس  
على الوتر المشدود على صندوق الربابة ، فأصدر اصطدام الوترين  
صكيكا مشوها انتقل سريانه الى أعصاب أسنانها ودماغيهما ،  
فارتجفنا .

– أصابعي لا تطاوعني .

– ذلك لانك تركتها شهرا .

حاول ثانية أن يقاوم تصلب الوتر ، حتى اذا التقى الوتران ألفا  
عواء كهواء صفارات الانذار ، وضجت الفسفرة بهدير قوي كهدير  
الطائرات في هبوطها السريع القاصف ، وانفجر ضوء الصباح وتهدمت  
البيوت اليابانية في وسائد السرير ، وتناثرت الاوراق المرسومة على  
أنواب المرأة والطفلتين ، والنوت حواجز السرير ثم انقضت في أرجاء  
الغرفة مع جسدي الطفلتين ، وملاّت الغرفة رائحة القماش واللحم  
والنسر المحترقة ، تلا ذلك اقدام راكضة ، وصراخ حاد وسط ظلام  
دامس كظلام القبور ، وصراخ المرأة :

– كف عن ذلك أرجوك . تقطعت أصابعك .

وأمسكت وتر الربابة لتسكته وتمنع الجندي من الاستمرار في  
العزف ، ثم خطفت منه صندوق الربابة . كان وتر الصندوق قد  
أحدث جروحا في أصابع يده ، فمسحها ببدلته الصوف ، وكان  
يختض :

– لم ترددي شيئا مع اللحن كالعادة . أصبحت لا أجيد العزف ؟

– لم يكن من الحاننا التي نعرفها ولم أعتمد هذا العزف . كنت  
كالنائم وأنت تجرّجرت النوس دون ضبط سوى ان الوتر قد حزن  
أصابعك .

– لست أصلح لشيء .

ومسح الدم الذي كان يجري من أصابعه بسرواله ، كانت  
يداه ترتجفان .

– أحدث لك شيء ؟

– في رأسي . رأسي مليء بالحجر . كنت أريد امتاعك . ولكني  
لا أصلح لشيء .

– الغرفة حارة . أنت مبترد ؟

– قدمي محشوتان بالثلج وكذلك جيوب سروالي .

وسجبت بطانية من السرير وغطته بعد أن تمدد على البساط  
ووضع رأسه على فخذه المطوية .

– أنت بحاجة لشيء الآن ؟

– نعم . بحاجة للنوم ، النوم الطويل .

– فلننم .

– تذكرت شيئا . كنت أرى شخصا يرتدي ثيابا سوداء يتبع  
الاطباء في المستشفى ، وكان أحيانا يتوقف عند سريري لكنه يستمر  
في تنقله حين يجد عيني مفتوحتين . وكنت أعرفه . كان ملك الموت .  
– نم . نم .

– كان يرتدي أساور في معصميه وحول قدميه ، فكان يصخب  
في مشيه ومع ذلك فان النائم لا يستيقظ حين مروره به .

– نم . نم . نم .

– اني بحاجة للنوم . لا توقظيني غدا كله . واظنني سانمام  
أربعة وعشرين يوما أخرى .

وكان الجندي ينام ، يخوض في دم جروح أصابعه اللزجة ،  
لزوجة الارحام . وكانت امرأته تتسلل هي الأخرى في تلافيف شعره  
الرمادي القصير باحتراس .. باحتراس .

محمد خضير

بغداد

– لا بد انكم تعودتم بعد ذلك على فرقتها .

– تكسر أنجوز أصبحت . غير أن الطائرات كانت تقصفنا  
باستمرار . اسمعنا نهبط وحين تنفجر قنبلة ينقطع تنفسي وبصري  
وكاني اهبط في حفرة ضيقة عميقة دون قرار بسرعة مذهلة . يهتز  
المسي فيسقط اجرحي للارض من اسرهم ثم يموتون . ومن الصعب  
الانساف الموتى في الحال . كانوا متسابقين . وفي فترة غياب  
الطائرات كانت النواقد تستمر في البريق .. لست ادري اذا ما كنت  
انام ام لا ، ولكني كنت احيانا أحس بنفسي كطير احلق من مكان الى  
آخر فوق المباني المحترقة وارى الناس يخرجون من بين الحرائب ،  
غير اني كنت طيرا ثقيل وسرعان ما تنفرد اجنحتي فاسقط للارض  
ولكني لا اموت فاهول حافيا وعاريا بين اطواق من النار . لست  
ادري اذا ما كنت نائما حينذاك ام لا . وسرعان ما يهتز المبني ويتساقط  
صخب السقف واسمعهم يتساقطون من اسرهم ولا يهضون بعد ذلك .

– احدث كل هذا ؟

– كل هذا .

– أعمل شيا لك ؟

– لا . انا بحاجة للنوم .

– انت بحاجة للاغتسال .

تفحص الغرفة باهتمام ، ونظر بين قدميه . كان حذاءه ملطخين  
بالطين ، وعداد المدفأة يشير للصفر . خلع معطفه والقاه على مسند  
الكرسي .

– سيكون هذا العيد موحلا .

فك الكوفية عن راسه ، وبدا شعره القصير الملفوف يضم كهود  
سوداء وسط مساحة رمادية متعرجة . ثم خلع حذاءه وهبط على  
الكرسي وجلس على ارض مستندا للسرير . جذبها اليه ، وسحب  
فوطتها عن راسها ، ومسح وجهها بقمه ثم قبلها برفق ، وادخل يده  
تحت ثيابها .

– جلدك خشن . ألم تقتسلي ؟

– كل مساء اغتسل . كنا ثلاثتنا نستمتع للقطارات في المحطة .  
هناك قطار يأتي بعد منتصف الليل ولا اعرف اتجاهه . غير اني افتح  
عيني احاول التقلب على العناس . أكون حينذاك مفتسلة ومعطرة .  
– انت معطرة الآن .

– كل ليلة .. وكانك معي تحت ثيابي . وفي جيوبي . وفي  
شعر رأسي . في كل مكان هنا . هنا .. تحت اصابعي .

– كانت هناك نساء في المستشفى .

– لا تحدثني .

– كن عاريا وافخاذهن مرفوعة يتدلى لحمهن الاسود .

– حدثني فيما بعد .

كانت لثوبها رائحة فظنية كرائحة لفافات الجروح ، وملا حدقيه  
شعرها . وباتجاه الصباح كانت الشعيرات الدقيقة النافرة عن  
مستوى شعرها المرصوف تمتد كاسلاك رخوة بين جدران الغرفة ،  
تنطلق منها ذرات منقذة سريعة جدا تملأ الغرفة ، كانفجار مفاجيء  
لقنبلة .

ابعدا عنه ، ونظر اليها طويلا ، طويلا جدا ، وازاح ذراعيها  
عن عنقه :

– لا ارجب في ذلك الآن .

– أنصعد فوق ؟

– كلا . اخرجني لتلماي المدفأة نظلا .

– فيها نفض يكفي .

– لا ارجب في ذلك ، كريمة .

حين عادت بالمدفأة بقيت واقفة مستندة بمؤخرتها للسرير، وتحركت  
الطفلتان في السرير واصدرت احدهما تهدة طويلة ثم القت بيدها  
خارج اعمدة الحاجز .

وماذا سمعت عنا أيضا ؟

– ذات مرة اشتريت جريدة ولم أفهم منها شيئا . كنت اسمع

الراديو .